سورة لقمان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥ ﴾.

الإحسان في أصل معناه اللغوي : الإتقان للعمل ، أي إنجازه على أفضل وجهٍ ، والمحسن: فاعل الإحسان أو المتقن لعمله ، ومقياس كوْن عملٍ ما حسناً في هذه الدنيا هو أن يكون مطابقاً للحقيقة الواقعة ، وعليه فالمحسن هو : الذي يعترف بالحقيقة الواقعة ، والذي يكون عمله كما ينبغي أن يكون وليس بالعكس .

والذين يمتلكون مزاج التكيف مع الحقيقة الواقعة ، إذا ما تبيّن لهم الصدق ، فلا يلبثون أن يتلقوه بالقبول ، لا تحول بينهم وإياه أية تعقيداتٍ أو عوائق نفسية ، ويأخذون في ممارسة كل مقتضيات العملية من غير تحفظٍ ولا ترددٍ ، وهم بالتالي يصبحون : مقيمي الصلاة ، التي هي علامة لتأدية حق الله ، ويؤدون الزكاة ، حيث إنها تعني أداء حق العباد في دائرة المال ، ويصيرون محبين للآخرة بدلاً من حب الدنيا ، لكونهم يعلمون أن الآخرة ، لا الدنيا، هي الدار التي يتقرر فيها مصير الإنسان النهائي إلى الفلاح أو إلى الخسران !

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ۝٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾ .

لَهْوَ الحَدِيثِ : الباطل المُلهِي عن الخير والعبادة .

هُزُواً : سخرية - مهزوءا بها .

وَلَّى مُسْتَكْبِراً : أعرض متكبرا عن تدبرها .

وَقْراً : صمما مانعا من السماع .

الأحاديث نوعان: النصيحة والتسلية ، وبما أن النصيحة تبعث في النفس الشعور بالمسئولية ، وتدعو المرء إلى فعل شيءٍ وترك شيءٍ ، فإنها كانت - ولا تزال - موضع اهتمام قلةٍ من الناس قليلةٍ جداً في كل العصور ، وأما مزاج الإنسان العام فقد ظل دوماً مولعاً بأحاديث التسلية والمجون ، وفي مقابل ((كتاب)) النصيحة والموعظة ، فإنه يحرص غالباً ، على شراء الكتاب الذي يتضمن مواد التسلية والمتعة الذهنية ، دون أن يفرض عليه أية مسئوليات والتزامات ، أو يأمره بأداء واجبٍ ما . ومن أعظم الناس جرماً الشخص الذي لا يكتفي بذاته في الاشتغال باللهو والمجون ، بل يأخذ في إلهاء الآخرين بفنون التسلية الفارغة والمتعة الباطلة كذلك ؛ ذلك لأنه نصب من نفسه قائداً لهذا الانحراف الذهني ، وأنه شغل أذهان الناس بما لا خير فيه ولا فائدة ، حتى جعلهم غير صالحين لكي يوجهوا عنايتهم نحو الأحاديث الجدية والمفيدة .

إن نفسية الاستكبار هي أسوأ النفسيات إطلاقاً ، والذي يكون مصاباً بنفسية الاستكبار ، فإنه لا يكاد يعترف بالحق وإن ظهر أمامه في أجلى مظاهره ، بل إن شعوره بالكبرياء والاستعلاء يدفعه إلى مقابلة الحق بالاحتقار وعدم الاكتراث ، وعلى نقيضٍ من هذا تماماً يكون حال أهل الإيمان ، فإن مزاجهم المولع بالنصيحة يرغمهم على أن

يبادروا إلى الاعتراف بالحق وأن يسخروا حياتهم كلها لخدمته !!

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾ .

بِغَيْرِ عَمَدٍ : بغير دعائم وأساطين تقيمها .

رَوَاسِيَ : جبالاً ثوابت .

أَن تَمِيدَ بِكُمْ : لئلا تضطرب بكم .

وَبَثَّ فِيهَا : نشر وفرق وأظهر فيها .

زَوْجٍ كَرِيمٍ : صنف حسن كثير المنفعة .

الكون فضاء رحيب إلى غير نهايةٍ ، يدور فيه ما لا يُحصى من الأجرام السماوية الضخمة بانتظامٍ ، وإن بقاء هذه الأجرام متماسكة في أماكنها ، رغم دورانها المستمر في الفضاء اللامتناهي ، واقع عظيم لدرجة تثير الدهشة والإكبار ، ثم إن أرضنا هذه كوكب استثنائي فذ ، بكل معنى الكلمة ، في هذا الكون ، حيث توجد هنا أسباب وتدابير لا يحصيها عدّ ؛ جعلت الحياة الإنسانية فوقها ممكنةً وجديرةً بأن تُعاش ، ومن بين هذه الأسباب والتدابير : وجود التوازن المدهش في الأرض بسبب ارتفاع الجبال على سطحها ، وتوافر أشياء عجيبة وضرورية للحياة كالماء والهواء والنبات بمقادير هائلةٍ .. إلخ.

وإنه ليس هناك من أحدٍ ، غير الله الواحد الكبير المتعال ، يقدر على إقامة هذا النظام العظيم وإدارته.. إذن ، فكيف يجوز للإنسان أن يتخذ من أشياء أخرى دون الله مركز عبادته!!

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ .

لُقْمَانَ : كان صالحا حكيما وليس نبياً .

الحِكْمَةَ : العقل والفهم والفطنة وإصابة القول .

إن شخصية لقمان الحكيم يكتنفها الغموض من الناحية التاريخية ، وقد وردت عنه أخبار كلها غير مقطوعٍ بصحتها ، إلا أنه - على أية حالٍ - كان رجلاً صالحاً حكيماً عابداً لله - عز وجل !

حيث يقول القرآن الكريم: إن لقمان كان عبداً شكوراً لله ، وإنه أوصى ولده بتجنب الشرك ، وكلاهما أمر واحد ، إذ التوحيد ينبع من نظرنا إلى الله على أنه وحده ولي نعمتنا وصاحب المنة والإحسان إلينا ، وأما الشرك فهو أن يجعل المرء أحداً من دون الله ولي نعمته والمتفضل عليه ، وبالتالي يأخذ في توجيه عواطف الشكر والامتنان الجياشة في صدره نحوه!!. ولئن كان المعطي واحداً لا ثاني له ؛ فإن الشكر هو الآخر ينبغي أن يكون خالصاً له وحده كذلك!

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ : أمرناه وألزمناه .

وَهْناً : ضعفاً .

وَفِصَالُهُ : فطامه عن الرضاع .

أَنَابَ إِلَيَّ : رجع إليَّ بالإخلاص والطاعة .

أعظم حقٍ على الإنسان - بعد حق الله - لوالديه ، بيد أنه إذا ما تعارض أمر الوالدين مع أمر الله - سبحانه وتعالى - كان أمر الله مقدماً على أمر الوالدين ، ولكن لابد - مع ذلك - من القيام بخدمتهما ومواصلة البر بهما على مدى الحياة .. وهذه الموازنة الدقيقة بين واجبين أو مطلبين متقابلين هي أسمى صور الحكمة الإسلامية، وفي هذه الحكمة السامية يكمن سر النجاح الأعلى في كل شعب الحياة !

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ .

مِثْقَالَ حَبَّةٍ : وزن أصغر شيء .

وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ : لا تمل وجهك عنهم كبراً وتعاظماً .

مَرَحاً : فرحا وبطراً وخيلاء .

مُخْتَالٍ فَخُورٍ : متكبر ، مباه متطاول بمناقبه .

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ : توسط فيه بين الإسراع والإبطاء .

وَاغْضُضْ : اخفض وانقص .

لقد أثبت التقدم العلمي الحديث أن كلمات الحاجز والفاصل والبعد (الزماني والمكاني) كلها نسبية ؛ فالأشعة السينية (أشعة إكس) بإمكانها أن ترى حتى داخل الجسم الإنساني ، كما أن الأشياء البعيدة أو المتناهية في الصغر ، التي تخفى عن عيوننا المجردة ، تبدو واضحةً جليةً عن طريق التلسكوب والميكروسكوب ، وهذا الإمكان الذي نجرِّبه هنا على مستوى محدودٍ ، يوجد عند الله سبحانه على مستوى غير محدودٍ .

إن عملك بالدين أو قيامك بدعوة الآخرين إلى الدين ، كلاهما مهمّة شاقة وعسيرة تتطلب الصبر ، والنهوض بأعبائها يفرض عليك أن تأخذ الأناة والتريث قبل الإقدام ، وتخالف هوى نفسك بدلاً من الانقياد لرغباتها ، وأن تتنازل عن كبريائك ، بدلاً من الحفاظ عليها ، وأن تتحمل أذى الآخرين وإساءاتهم من طرفٍ واحدٍ .

وكل هذه من عزائم الأعمال ، وإن الخلق المفعم بروح الجد والعزيمة هو الخلق الإسلامي ذاته!!

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ .

سَخَّرَ لَكُم : لمنافعكم ومصالحكم .

وَأَسْبَغَ : أتم وأوسع وأكمل .

لقد أنشئ عالمنا الراهن بحيث يجده الإنسان ملائماً لنفسه من كل الوجوه والنواحي، هذا إلى جانب أن هذا العالم يتوفر فيه كل شيءٍ يحتاج إليه الإنسان بمقدار هائل ، ولكن الإنسان لا يشكر خالق الكون ، بل ربما يحاول - بإثارة مجادلاتٍ عقيمةٍ

فارغةٍ - أن يصرف توجه الناس عن الله رب العالمين!

وإن سبب انحراف الإنسان يرجع، في الأعم الأغلب، إلى أنه لا يستعمل عقله، ولا يُعمل فكره مترفعاً على العادات والتقاليد السائدة، ولو أن المرء قد ارتفع بنفسه على التقاليد والعادات، وتحرر من أسرها، لصار العقل الذي زوّده الله به كافياً في ذاته لكي يوجهه نحو الاتجاه الصحيح!!

﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

يُسْلِمْ وَجْهَهُ : يفوض أمره كله .

اسْتَمْسَكَ : تمسك وتعلق واعتصم .

بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى : بالعهد الأوثق الذي لا نقض فيه .

عَذَابٍ غَلِيظٍ : شديد ثقيل (عذاب النار) .

إن كل امرئٍ له اتجاه معين في هذه الحياة، وهو يكون منصرفاً إليه بكليته فكراً وعملاً، والمؤمن هو الذي يتجه بكيانه كله نحو الله، إن الحياة الإيمانية هي حياة إلهية الاتجاه، وأما الحياة غير الإيمانية فهي حياة لا إلهية الاتجاه .. ومنَ اتجه نحو الله، فقد سار في اتجاه الهدف الصحيح، وإنه واصل حتماً إلى مصيرٍ طيب وعاقبةٍ محمودةٍ .. وعلى نقيضٍ من هذا فإن مَنْ يغفل عن الله ويتجه بالتالي نحو غيره، فقد صار بلا اتجاهٍ صحيحٍ ولا هدفٍ معينٍ، وقد يمكن أن ينال هذا الشخص بعض الفوائد الآنية في مجال هذه الحياة الفانية، ولكن ليس ينتظره في حياة الآخرة الأبدية شيءٍ سوى عذاب غليظٍ !!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

يَمُدُّهُ : يزيده وينصب إليه .

سَبْعَةُ أَبْحُرٍ :مملوءة ماء .

مَا نَفِدَتْ : ما فرغت وما فنيت .

كَلِمَاتُ الله : مقدوراته وعجائبه أو معلوماته .

إن الكون يبلغ من العظمة والاتساع حداً لا يستطيع معه أي شخصٍ ادعاء أن له صانعاً آخر غير الله - جل وعلا ، ولكن الإنسان ، مع اعترافه بهذه الحقيقة الجلية ، يرفع أشياء أخرى من دون الله إلى مقام العظمة والقداسة ، وما الشرك إلا اسم آخر لهذا المسلك اللامعقول .

وإن عظمة الكون لأعظم من أن يُستطاع وصفها بالألفاظ ، إن تاريخ العلوم الطبيعية يغطي من المساحة الزمانية آلاف السنين ، ولكن ، بالرغم من أبحاث ودراسات هائلة تفوق الحصر ، لم يتمكن علم الإنسان بعدُ ، حتى من الإحاطة بأسرار شيءٍ واحدٍ وخفاياه إحاطةً كليةً شاملةً .. فكم في رحاب الفضاء عدد النجوم والكواكب؟ ، وكم عدد أنواع النبات والحيوان الموجودة على ظهر البسيطة ؟ وما كُنْه ذرةٍ من ذرات الرمال ، وحقيقة ورقةٍ من أوراق الشجر؟ ، وكم من عجائب ونفائس مخبوءة في أعماق البحار؟

وجملة القول: فإن أي شيءٍ من أشياء الدنيا، مهما كان صغيراً أو كبيراً، لم يستطع الإنسان أن يستقصي عنه معلومات كاملةً وشاملةً .. إذن، أفلا يكفي هذا الواقع وحده للبرهنة على أن الإنسان لن يستطيع أبداً، حتى ولو صارت له كل أشجار الأرض أقلاماً، واستحالت بحارها مداداً، أن يدون آلاء الله ويصف عجائب صنعه التي لا تُعدُّ ولا تحصى!!

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

يُولِجُ: يدخل.

الإنسان دليل في ذاته على أن ظهور الحياة الأولى ممكن، وإذا أمكن ظهور الحياة مرةً واحدةً، فإن ظهور الحياة مرةً ثانيةً وثالثةً بل مراتٍ ومراتٍ يصير ممكناً بطريق الأَوْلى والأَحْرى.

وهكذا، كل واحدٍ منا يعلم، من واقع تجربته الذاتية، أنه يستطيع أن يسمع صوتاً، وأن يرى منظراً، وإذا كان سماع صوتٍ واحدٍ ورؤية منظرٍ واحدٍ ممكناً، فماذا يجعل من سماع الأصوات الكثيرة ورؤية المناظر الكثيرة أمراً مستبعداً أو مستحيلاً ؟!

وإيلاج النهار في الليل وبالعكس إشارة، في لغة الكناية، إلى تلك الظاهرة التي تُعرف في عصرنا الحديث بدورة الأرض المحورية، إن دوران الأرض في محورها بانتظامٍ ودقةٍ، وما إلى ذلك من ظواهر أخرى مماثلةٍ، يدل على أن خالق هذا الكون ومالكه إله عظيم إلى حدٍ لا يمكن تصوره، فمن هناك سواه، والحالة هذه، الذي

يستحق أن نعبده ونرفعه إلى مقام العلو والكبرياء في حياتنا؟!

والحقيقة هي أن كل ما يُرفع إلى درجة الكبرياء والعظمة من دون الله الواحد الأحد، الفرد الصمد، فإنما يكون ذلك كذبًا وباطلًا، إذْ ليس ثمة من أحد غير الله الواحد يتمتع بأية عظمة أو مجدٍ ذاتي حقيقي!

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

غَشِيَهُم مَّوْجٌ : علاهم وغطاهم

كَالظُّلَلِ :كالسحاب . أو الجبال المظلة .

فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ :موف بعهده شاكر لله .

خَتَّارٍ كَفُورٍ : غدار جحود للنعم .

لو أننا ألقينا بشيءٍ ما في البحر لغرق من فوره، ولكن الله سبحانه قد أخضع الماء لقانون خاصٍ، مما يجعل السفن والباخرات الضخمة لا تغرق في أعماق البحار، بل تطفو على سطح المياه، وتنتقل بالإنسان وأمتعته من مكانٍ إلى مكانٍ، وهذا من غير شكٍ آية عظيمة، بيد أن هذه الآية لن يعتبر بها إلا الإنسان الصابر والشاكر. أما الصابر فهو الذي يجنب نفسه الاندفاع وراء الأحاسيس الخاطئة والنزوات الطائشة. وأما الشاكر فهو الذي يستطيع أن يعترف بالحقيقة التي توجد خارج ذاته هو، على أن البحر حين يهيج، وتحيط بالمرء أمواجه العاتية كالجبال، تتأرجح فيها سفينته كالقشة، فيدرك كم هو عاجز وضعيف، عندئذٍ لا يلبث أن يذهل عن كل مظاهر الكبرياء والعظمة، ويتوجه إلى الله وحده؛ ليستغيثه في ضراعةٍ وابتهالٍ. وهذه التجربة التي يمر بها رُكاب

السفينة في البحر خليقة أن يستخلص الناس منها الدرس والعبرة ، ولكن قليل جداً هم الذين ينظرون إلى أمثال هذه الحوادث بعين التذكر والاعتبار ، ويسيرون بالتالي على جادة الحق والعدل بثباتٍ واستقامةٍ ، وأما أكثر الناس فتراهم إذا وقعوا في مصيبةٍ ما ، ذكروا الله وأنابوا إليه ، وإذا انقشعت غيوم المصيبة، عادوا ثانيةً سيرتهم الأولى من الجحود والطغيان ونكران الجميل !!

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

يَوْماً لاَّ يَجْزِي : لا يقضي فيه شيء .

فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ : فلا تخدعنكم وتلهينكم بلذاتها .

الغَرُورُ : ما يغر ويخدع من شيطان وغيره .

قد يبدو ظاهراً أن المرء مهما فعل من شيءٍ ، لن يؤاخذه أحد أبداً ، بينما تنتظره ساعة رهيبة لدرجة تنقطع معها الروابط حتى بين الوالد وولده ، فلا يعود يغني أحدهما عن الآخر فتيلاً !

"متى ستأتي هذه الساعة إن كانت آتيةً ؟!" .

إن طرح سؤال كهذا تجاوز عن حدودنا ، فالإنسان لا يدري شيئاً عن أحداث الغد القريب حتى في إطار عالمه المعلوم ، وعلى سبيل المثال ليس بإمكاننا التنبؤ ، بصيغةٍ

حتمية أكيدة ، عن نزول المطر ، وعن شئون الأجنة في الأرحام ، وعن مستقبلنا الاقتصادي ، وأين يفاجئ أحدنا الموت وفي أي مكان يُقبر ، إلخ . ولكن بالرغم من هذا القصور العلمي فإن الإنسان يسلم بهذه الحقائق كواقعةٍ لا مندوحة عنها ، وهكذا ينبغي عليه أن يوقن بيوم القيامة أيضاً على أساس الخبر الإجمالي غير المحدد!